المقاصد العامة للقرآن الكريم من خلال سورة الفاتحة

أ. يوسف سرطوط، جامعة الجلفة

التخصص: علوم إسلامية (أصول الفقه)

مقدمة:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

القرآن الكريم منبع الدين، ومعجزة الرسالة، ومصدر الشريعة ؛ فلزم ضرورة لمن أراد إدراك كليات الإسلام وطمع في فقه مقاصده، وحكمه وأسراره، أن يعوّل عليه، وأن يتخذه خليلاً، ويجعله جليساً على مر الليالي والأيام.

إن جميع المقاصد الشرعية المعتبرة والمعلومة والمقررة في الدراسات الشرعية إنما هي راجعة في جملتها أو تفصيلها - تصريحا أو تضمينا - إلى هدي القرآن وتعاليمه وأسراره وتوجيهاته. فإذا كنا نلتمس المقاصد ونستخرجها من كتب الفقه وكتب الأصول وغيرها، فأولى بنا الآن أن نرجع إلى الأصل بأن نلتمسها ونستخرجها من القرآن الكريم. فإنما المقاصد مقاصد الكتاب المبين، وإنما الأصول أصول الوحي الحكيم.

فالقرآن الكريم ينطوي على أرقى المقاصد وأكبرها، وأعلى المصالح وأعظمها، فهو أصل الأصول ومصدر المصادر، وأساس النقول والعقول.

ولقد تعددت آراء العلماء في بيان المقاصد العامة للقرآن الكريم، وتباينت كثيرا، خاصة في وقتنا المعاصر، فكل يدلي بما وصل إليه علمه واجتهاده، وبما أن سورة الفاتحة قد حوت معاني القرآن العظيم الكبرى، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، ارتأيت أنّ بيان مقاصدها هو الأنسب والأفضل للخروج بتصور محكم ودقيق لمقاصد القرآن الكريم العامة والكبرى.

ونظرا لضخامة الموضوع واتساعه، سنتطرق له بشكل مختصر مجمل وفق الخطة التالية:

مقدمة:

المبحث الأول: تحديد المفاهيم

المطلب الأول: مفهوم المقاصد العامة للقرآن الكريم

المطلب الثاني: التعريف بسورة الفاتحة

المبحث الثاني: المقاصد العامة للقرآن الكريم

المطلب الأول: أقوال العلماء في بيان المقاصد العامة للقرآن الكريم.

المطلب الثاني: أقوال العلماء في بيان المقاصد العامة لسورة الفاتحة

المطلب الثالث: القول المختار في تحديد المقاصد العامة للقرآن الكريم

الخاتمة

المبحث الأول: تحديد المفاهيم

هناك جملة من المفاهيم والمصطلحات، يجب بيان المراد منها قبل الخوض في غمار هذا البحث ليتسنى لنا بعد ذلك فهمه على وجهه الصحيح، ومتابعته بيسر وسلاسة، فنقول وبالله التوفيق:

المطلب الأول: مفهوم المقاصد العامة للقرآن الكريم

(المقاصد العامة للقرآن الكريم) مركب إضافي، مداره على كلمتين هما: (المقاصد) و(القرآن)، يقتضينا منهج البحث التحليلي أن نعرِّفَ كل كلمة على حدة أولًا، ثم نبيِّنُ معنى المركب الإضافي باعتباره علمًا على فن مخصوص، فنقول:

أولاً: تعريف المقاصد لغة:

خلاصة القول في المعنى اللغوي لكلمة (القصد) قول ابن جني: " أصل مَادَّة " ق ص د " ومواقعها فِي كَلَام الْعَرَب: الاعتزام، والتوجه، والنهود، والنهوض نَحْو الشَّيْء، على اعْتِدَال كَانَ ذَلِك أَو جور. هَذَا أصله فِي الْحَقِيقَة، وَإِن كَانَ قد يخص فِي بعض الْمَوَاضِع بِقصد الاسْتقَامَة دون الْميل. أَلا ترى أَنَّك تقصد الْجور تَارَة كَمَا تقصد الْعدْل أُخْرَى، فالاعتزام والتوجه شَامِل لَهما جَمِيعًا "[1].

ثانيًا: تعريف المقاصد اصطلاحاً:

عرفها الريسوني بقوله: "إن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد"[2].

وعرفها الدكتور محمد بن سعد اليوبي بقوله: المقاصد هي المعاني والحكم ونحوها التي راعاها الشارع في التشريع عموما وخصوصًا من أجل تحقيق مصالح العباد"[3].

ثالثا: تعريف المقاصد العامة:

قال عبد العزيز بن ربيعة: " المقاصد العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها "[4].

رابعًا: تعريف القرآن لغة:

القرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة. ومنه قوله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)[5]، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسما للكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من باب إطلاق المصدر على مفعوله...، فلفظ قرآن مهموز، وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف، وإذا دخلته (ال) بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف)[6]. وهذا هو الرأي الراجح، والله أعلم.

خامسًا: تعريف القرآن اصطلاحًا:

أقرب هذه التعريفات وأشملها أن يقال فيه: (إنه الكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته)[7]، المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس.

بناءً على ما سبق يصبح تعريف المقاصد العامة للقرآن الكريم: هي الغايات والحكم الملحوظة للشارع في جميع القرآن الكريم أو معظمه.

المطلب الثاني: التعريف بسورة الفاتحة

سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي أمر الإسلام أتباعه أن يقرءوها في كل صلاة. وفي جميع الركعات، وفي كل الأوقات، ولهذا أصبح حفظها ميسورا لكل مؤمن؛ فهو يردد هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع، سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى، وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن، وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلاً، ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد في الصحيحين عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من حديث عبادة بن الصامت: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[8] ؛ ففي هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها[9].

ولنأخذ الآن بعض المعلومات التعريفية بسورة الفاتحة كالتالي:

أولا: متى نزلت سورة الفاتحة ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: إن الرأي الراجح بين المحققين من العلماء أنها نزلت بمكة، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة.

وقيل: إنها مدنية. وقيل: إنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة.

قال القرطبي: " الأول أصح لقوله تعالى في سورة الحجر: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) [10] وسورة الحجر مكية بالإجماع. ولا خلاف في أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه لم يكن في الإسلام قط صلاة بغير الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «يدل على ذلك قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب». وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء " [11].

ثانيا: عدد آياتها:

وهي سبع آيات لقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ). قال العلماء: السبع المثاني هي الفاتحة، قال ابن كثير: هي سبع آيات بلا خلاف " [12].

ثالثا: أسماؤها [13]:

لسورة الفاتحة أسماء كثيرة من أشهرها:

1- «الفاتحة أو فاتحة الكتاب» وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظا. وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطا، وتفتتح بها الصلوات، وإن لم تكن هي أول ما نزل من القرآن. وقد اشتهرت بهذا الاسم في أيام النبوة.

وقد أصبح هذا الاسم علما بالغلبة لتلك الطائفة من الآيات التي مبدؤها الْحَمْدُ لِلَّهِ..ونهايتها.. وَلَا الضَّالِّينَ.

2- «أم القرآن أو أم الكتاب» وسميت بذلك لاشتمالها إجمالا على المقاصد التي ذكرت فيه تفصيلا، أو لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده

ووعيده، أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء.

قال ابن جرير: «والعرب تسمى كل أمر جامع أمّا، وكل مقدم له توابع تتبعه «أما» فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: «أم الرأس». وتسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها «أما» " [14].

3- «السبع المثاني» جمع مثنى كفعلى اسم مكان. أو مثنى- بالتشديد- من التثنية على غير قياس. وسميت بذلك لأنها سبع آيات في الصلاة، أي تكرر فيها، فقد أخرج الإمام أحمد، عن أبى هريرة، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم» [15].

4- وتسمى- أيضا- سورة «الحمد».

5- و«الكنز».

6- و«الواقية».

7- و«الشفاء»، لحديث. هي الشفاء من كل داء.

8- و«الكافية» لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها.

9- و«الأساس».

10- و«الرقية».

هذا، وقد ذكر القرطبي للفاتحة اثني عشر اسما، كما ذكر السيوطي لها في كتابه «الإتقان» خمسة وعشرين اسما.

رابعا: فضلها:

ورد في فضل سورة الفاتحة أحاديث كثيرة منها:

ما رواه البخاري في صحيحه عن أبى سعيد بن المعلى- رضي الله عنه- قال: كنت أصلى في المسجد، فدعاني النبي صلّى الله عليه وسلّم فلم أجبه فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلّى. فقال: ألم يقل الله: (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ) ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يا رسول الله. ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن. قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» " [16].

وروى مسلّم عن ابن عباس، قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلّى الله عليه وسلّم سمع نقيضا من فوقه- أي: صوتا- فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم. فسلّم وقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، ولم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» " [17].

المبحث الثاني: المقاصد العامة للقرآن الكريم

المطلب الأول: أقوال العلماء في بيان المقاصد العامة للقرآن الكريم

لقد تعددت آراء العلماء في بيان مقاصد القرآن الكريم، ونحن إن دققنا النظر في هذه المقاصد التي نبهوا عليها، فإننا نجدها جميعًا مقاصد عامة في اصطلاح علماء المقاصد، ونرى أنهم غفلوا عن التنبيه لذلك اعتمادا منهم – ربما – على وضوح هذا الأمر، وأنهم يرمون إلى بيان المقاصد الكبرى للقرآن الكريم ؛ وتحريا للدقة العلمية فإنني عمدت لضبط عنوان هذا المقال بكلمة (العامة) تمييزاً لها عن غيرها من المقاصد الخاصة أو الجزئية.

وسأقوم الآن بعرض بعض اجتهادات العلماء في بيان مقاصد القرآن ؛ نظرًا لكثرتها وضيق المقام هنا، فأقول وبالله التوفيق:

01 – مقاصد القرآن عند أبي حامد الغزالي (ت 505هـ):

يعد الغزالي – في حدود اطلاعي وعلمي – أول من وضع تصنيفا واضحا ودقيقا لمقاصد القرآن، فهو يرى أن مقصد القرآن الأعظم هو معرفة الله عز وجل، ثم قسّم مقاصد القرآن إلى فرعين كبيرين هما: الأصول والتوابع، ثم قام بتقسيم كل فرع إلى ثلاثة أقسام، ولنترك الغزالي يحدثنا عن ذلك فيقول: " الفصل الثاني

في حصر مقاصد القرآن ونفائسه: سر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما وما تحت الثرى، فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع:

- ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهمة.
- وثلاثة: هي الروادف والتوابع المغنية المتمة.

أما الثلاثة المهمة فهي:

(1) تعريف المدعو إليه.

(2) وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

(3) وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتمة:

- فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم؛ وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله لهم؛ وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسره ومقصوده في جنب الباطل الإفصاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد " [18].. ثم شرح وفصّل القول فيها.

02 – مقاصد القرآن عند فخر الدين الرازي (ت 606هـ):

يرى الرازي أن مقصد القرآن الأعظم هو الإلهيات، ثم تأتي بعده في الأهمية مقاصد كبرى ثلاث يدور عليها معه القرآن بأكمله، فيقول: " اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة تقرير الإلهيات " [19].

03 – مقاصد القرآن عند محمد عبده (ت: 1323هـ):

يرى محمد عبده أن القرآن الكريم نزل من أجل أمور: أحدها: التوحيد، وثانيها وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العاقبة، وثالثها: العبادة التي تحيي القلوب بالتوحيد وتثبته في النفوس، ورابعها: بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة، وخامسها: قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكامه ظهريا ؛ لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين، ومعرفة سنن الله في البشر " [20].

04 – مقاصد القرآن عند محمد رشيد رضا (ت: 1354هـ):

قسم محمد رشيد رضا مقاصد القرآن إلى عشرة أنواع، ذكرها في كتابيه: (الوحي المحمدي) و(تفسير المنار) [21]، وسأذكرها باختصار كالتالي:

المقصد الأول: بيان أركان الدين الثلاثة وهي: الإيمان بالله، والإيمان بعقيدة البعث والجزاء، والعمل الصالح

المقصد الثاني: بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل.

المقصد الثالث: بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال.

المقصد الرابع: الإصلاح الاجتماعي الإنساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثماني وهي:

وحدة الأمة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع بالمساواة في العدل - وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة.

المقصد الخامس: تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات.

المقصد السادس: بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة.

المقصد السابع: الإرشاد إلى الإصلاح المالي.

المقصد الثامن: إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر.

المقصد التاسع: إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

المقصد العاشر: هداية الإسلام في تحرير الرقيق وأحكامه.

05 – مقاصد القرآن عند عبد العظيم الزرقاني (ت: 1367هـ):

يقرر الزرقاني أن مقاصد القرآن ثلاثة هي: الهداية، تأييد النبي ﷺ، التعبد بالتلاوة، وفي ذلك يقول: " بما أن الترجمة عرفا لا بد أن تتناول مقاصد الأصل جميعا فإنا نقفك على أن تعالى في إنزال كتابه العزيز ثلاثة مقاصد رئيسية: أن يكون هداية للثقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس " [22].

06 – مقاصد القرآن عند محمود شلتوت (ت: 1383هـ):

قام محمود شلتوت بتقسيم مقاصد القرآن إلى ثلاثة أقسام، يقول في كتابه (إلى القرآن الكريم): " إن مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث: ناحية العقيدة وناحية الأخلاق وناحية الأحكام " [23].

07 – مقاصد القرآن عند محمد الغزالي (ت: 1416هـ)

يرى محمد الغزالي أن القرآن يدور على محاور خمسة [24].تمثل مقاصد القرآن وما تضمنه من أهداف وموضوعات وهي: الله الواحد، الكون الدال على خالقه، القصص القرآني، البعث والجزاء، التربية والتشريع.

08 – مقاصد القرآن عند طه جابر العلواني:

يرى العلواني أن مقاصد القرآن ثلاثة هي: التوحيد، والتزكية، والعمران، وهو يعتبرها مقاصد عليا حاكمة، وقيم أساسية كبرى، ومبادئ أصلية استخلف الإنسان لتحقيقها " [25].

09 – مقاصد القرآن عند صلاح الخالدي [26]:

يوجز الخالدي أغراض القرآن الأساسية في أربعة هي: هداية الإنسان إلى الخير العميم في دنياه وأخراه، تكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة المتوازنة، إقامة مجتمع إسلامي فريد، قيادة الأمة في معركتها مع الجاهلية.

10 – مقاصد القرآن عند علي الصّلابي [27]:

يرى الصّلابي أن مقاصد القرآن خمسة عشر هي: أولاً: تصحيح العقائد والتصورات، ثانياً: تزكية النفس البشرية، ثالثاً: عبادة الله وتقواه، رابعاً: إقامة العدل بين الناس، خامساً: الشورى، سادساً: الحرية، سابعاً: رفع الحرج، ثامناً: تقرير كرامة الإنسان، تاسعاً: تقرير حقوق الإنسان، عاشراً: تكوين الأسرة الصالحة، الحادي عشر: إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية، الثاني عشر: بناء الأمة الشهيدة على الناس، الثالث عشر: السماحة، الرابع عشر: الرحمة، الخامس عشر: الوفاء بالعهود والعقود.

هذه نبذة مختصرة مركّزة من آراء العلماء في بيان مقاصد القرآن الكريم، وهي تبرز مدى تنوع وجهات النظر في هذا الموضوع الجوهري، الذي لا بد للمفسر من الإحاطة به ليخوض غمار تفسير كتاب الله، بل لا بد للفقيه من استحضاره أثناء استنباط الأحكام الشرعية من القرآن أو حتى السنة النبوية، وينطبق الأمر كذلك على جميع المتخصصين في علوم الشريعة الإسلامية.

المطلب الثاني: أقوال العلماء في بيان المقاصد العامة لسورة الفاتحة

نجد كثيرا من العلماء قديما وحديثا ينص على اشتمال سورة الفاتحة على مقاصد القرآن الكبرى بشكل مختصر مجمل، ونلاحظ اتفاقاً بينهم على ذلك، ولعل مرجع هذا الاتفاق – فيما أعتقد – راجع إلى تلك الأحاديث النبوية التي تصف الفاتحة بأنها: (أم القرآن، أم الكتاب) ؛ ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني»[28] أي أنها جامعة لخلاصة ما في القرآن الكريم، ولا أدل على ذلك من قول الحسن البصري: " أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان القرآن، ثم أودع علوم القرآن المفصّل، ثم أودع علوم المفصّل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة " [29]، وقال ابن التين في حديث البخاري: "لأعلمنك سورة هي أعظم السور" معناه أن ثوابها أعظم من غيرها، وقال غيره: إنما كانت أعظم السور لأنها جمعت جميع مقاصد القرآن ولذلك سميت أم القرآن " [30].

أما عن بيان العلماء لمقاصد سورة الفاتحة، فنقول:

قال الزمخشري: " سورة فاتحة الكتاب... وتسمى أمّ القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على اللَّه تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهى، ومن الوعد والوعيد " [31].

- فالزمخشري يرى من خلال النص السابق أن مقاصد سورة الفاتحة ثلاثة هي: الثناء على اللَّه، والعبادة، والوعد والوعيد.

وقال الرازي في سياق كلامه عن أسماء الفاتحة وسببها: "... «أم القرآن»... أم الشيء أصله، والمقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى، فقوله: (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم) يدل على الإلهيات، وقوله: (مالك يوم الدين) يدل على المعاد، وقوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) يدل على نفي الجبر والقدر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله: (إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يدل أيضا على إثبات قضاء الله وقدره وعلى النبوات،...، فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة وكانت هذه السورة مشتملة عليها لقبت بأم القرآن " [32].

- فالرازي يرى أن مقاصد سورة الفاتحة أربعة هي: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر.

وقال الطيبي: هي – الفاتحة - مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين:

أحدها: علم الأصول ومعاقده معرفة الله تعالى وصفاته وإليها الإشارة بقوله: {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم} ومعرفة النبوة وهي المرادة بقوله: {أنعمت عليهم} ومعرفة المعاد وهو المومأ إليه قوله: {مالك يوم الدين}.

وثانيها: علم الفروع وأسه العبادات وهو المراد بقوله: {إياك نعبد}.

وثالثها: علم ما يحصل به الكمال وهو علم الأخلاق وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية والالتجاء إلى جناب الفردانية والسلوك لطريقه والاستقامة فيها وإليه الإشارة بقوله: {وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم}

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة والقرون الخالية السعداء منهم والأشقياء وما يتصل بها من وعد محسنهم ووعيد مسيئهم وهو المراد بقوله: {أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} " [33].

- فالطيبي يرى أن مقاصد سورة الفاتحة أربعة هي: علم العقيدة (الأصول)، علم الأحكام (الفروع)، علم الأخلاق، علم القصص.

وقال محمد عبده: " والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها..... وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور:

أحدها: التوحيد، وثانيها وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العاقبة، وثالثها: العبادة التي تحيي القلوب بالتوحيد وتثبته في النفوس، ورابعها: بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة، وخامسها: قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكامه ظهريا ؛ لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين، ومعرفة سنن الله في البشر هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية، والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب " [34].

- نستطيع تلخيص المقاصد العامة لسورة الفاتحة عند محمد عبده في أنها خمسة: أولها: التوحيد، ثانيها:الوعد والوعيد، ثالثها: العبادة، رابعها: بيان سبيل السعادة، خامسها: القصص.

وقال الصابوني: " وهي (أي سورة الفاتحة) - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادة، والتشريع، والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء، والتوجه إليه جلَّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقين، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمّى «أم الكتاب» لأنها جمعت مقاصده الأساسية " [35].

- يمكن أن نوجز المقاصد العامة لسورة الفاتحة عند الصابوني في: العقيدة، والعبادة، والتشريع، والقصص، وبقية ما ذكره من مقاصد داخل تحتها.

نقد وتقييم:

يلاحظ على أغلب العلماء ذكر مجالات المقاصد، لا المقاصد بحد ذاتها ؛ كقول بعضهم: العقيدة، الأخلاق، الوعد والوعيد، العبادة... الخ، فإن هذه مجالات وميادين واسعة لا تصلح أن تسمى مقاصد، بل المقاصد تصنّف ضمنها.

كما يلاحظ تنوع واختلاف ظاهر بين أقوال العلماء، فالرازي مثلاً، لم يذكر إلا مقاصد العقيدة دون سواها (الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر)، والآخرون يذكرون ما لا يذكره غيرهم، كالأحكام مثلاً.

المطلب الثالث: القول المختار في تحديد المقاصد العامة للقرآن الكريم

لا شك أن الاختلاف والتنوع بين أقوال العلماء في تحديد المقاصد العامة لكل من القرآن الكريم، ثم لسورة الفاتحة يعبّر عن مدى صعوبة ضبط هذا الموضوع الخطير، الذي يكتسي أهمية بالغة في تحديد تصور واضح عن أهداف القرآن الكريم، ليس للمفسرين والفقهاء فحسب، بل حتى لطلبة العلوم الشرعية الإسلامية.

لذا أرى – حسب اجتهادي الشخصي – أنّ أرجح الأقوال وأولاها بالتقديم، هو قول حجة الإسلام الغزالي نظرًا للاعتبارات التالية:

01 – أن الإمام الغزالي من أبرز الأصوليين الذين أسهموا بشكل واضح جلي، في رسم معالم المقاصد الشرعية كما هي عليه اليوم هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعد الغزالي – في حدود اطلاعي وعلمي – أول من وضع تصنيفا واضحا ودقيقا لمقاصد القرآن في وقت مبكر، فيكاد يكون العالم الوحيد المتبحر في الفقه والأصول الذي تحدث عن مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة معًا، بروح الناقد البصير الواقف على أسرار الشريعة، وأهداف القرآن.

02 – تأسيسًا على ما سبق، وبمقارنة قوله مع أقوال غيره المذكورين آنفا، يتجلى بوضوح أن تقسيمه وتحديده لمقاصد القرآن الكريم، هو الأدق والأشمل.

03 – بمحاولة تنزيل مقاصد القرآن – كما استخرجها الغزالي – على آيات سورة الفاتحة، نجد تطابقا دقيقا يعطي المصداقية الكاملة لقوله، ويزيدنا يقينا بأن الرجل كان فطنا وواعيا بما يقول، وبعيدا كل البعد عن التناقض، وذو بصيرة نافذة، وبرهان تلك المقابلة ما يلي:

مقاصد القرآن الكريم عند الغزالي ستة، يقابلها من آيات سورة الفاتحة ما يلي:

(1) تعريف المدعو إليه: يقابلها: (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين).

(2) تعريف الصراط المستقيم: يقابلها: (اهدنا الصراط المستقيم).

(3) تعريف الحال عند الوصول إليه: يقابلها: (يوم الدين / صراط الذين أنعمت عليهم).

(4) تعريف أحوال المجيبين: يقابلها: (الذين أنعمت عليهم).

(5) حكاية أحوال الجاحدين: يقابلها: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

(6) تعريف عمارة منازل الطريق: يقابلها: (إياك نعبد وإياك نستعين).

خاتمة:

النتيجة التي نخرج بها مما سبق يمكن حوصلتها في النقاط التالية:

01 – سورة الفاتحة ملخص وجيز لكليات القرآن الكريم ومقاصده.

02 - مقاصد الشريعة جزء يسير من مقاصد القرآن الكريم، فمقاصد الشريعة لا تمثل إلا مقاصد الأحكام.

03 – هناك اختلاف وتنوع كبير في تحديد مقاصد القرآن بين العلماء.

04 – يرى كثير من العلماء أن مقاصد القرآن الكريم عبارة عن المجالات التي تكلم فيها القرآن وأعطى تصورا عنها: كالعقيدة والأخلاق والعبادة... الخ.

05 – هناك تطابق بين مقاصد القرآن ومقاصد سورة الفاتحة عند الغزالي.

وفي الأخير نوجّه دعوة إلى الباحثين لدراسة موضوع مقاصد القرآن الكريم، فهو يحتاج إلى جهود أخرى متضافرة، من المتخصصين في علوم الفقه والأصول، وكذا المتخصصين في علوم التفسير والقرآن، والموضوع لا يزال بكرًا ينتظر من يستخرج كنوزه ودرره.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الهوامش:

(1): ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 2000م، 6/ 187. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1414 هـ، 355/3. الزَّبيدي، أبو الفيض مرتضى محمّد بن محمّد الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، (د.ط)، 1965 م، 36/9.

(2): الريسوني، أحمد: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية: 1412 هـ - 1992م، ص 07.

(3): اليوبي، محمد سعد: مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار الهجرة، الرياض، الطبعة الأولى: 1418 هـ - 1998م، ص 37.

(4): ابن ربيعة، عبد العزيز بن عبد الرحمن: علم مقاصد الشارع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى: 1423هـ - 2002م، ص 193.

(5): سورة القيامة، الآيتان: (17 - 18).

(6): الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الثالثة، (د.ت)، 14/1.

(7): الزرقاني: مناهل العرفان، 19/1. وانظر: إسماعيل، محمد بكر: دراسات في علوم القرآن، دار المنار، الطبعة الثانية:1419هـ- 1999م، 10/1.

(8): البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: الجامع الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، كتاب: الآذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم: 756، 151/1، عن عبادة بن الصامت ﷺ. ومسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري: الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (فيصل البابي الحلبي)، القاهرة، الطبعة الأولى: 1374هـ - 1955م، كتاب: الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم: 394، 295/1، عن عبادة بن الصامت ﷺ.

(9): قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، الطبعة السابعة عشر: 1412 هـ، 21/1.

(10): سورة الحجر: 87.

(11): القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية: 1384هـ - 1964م، 1/115.

(12): ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية: 1420هـ - 1999م، 1/101.

(13): طنطاوي، محمد سيد: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى: 1997م – 1998م، 1/12.

(14): ابن جرير، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1420 هـ - 2000م، 1/107.

(15): أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2001م. رقم: 9787، 15/489.

(16): البخاري: الجامع الصحيح، كتاب: تفسير القرآن، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم: 4474، 6/17.

(17): مسلم: الجامع الصحيح، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، رقم: 806، 1/554.

(18): الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي: جواهر القرآن، تحقيق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثانية: 1406 هـ - 1986م، ص 23، 24.

(19): الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الملقب بخطيب الري: مفاتيح الغيب (تفسير الرازي = التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: 1420 هـ، 20/231 وانظر كذلك: 1/ 156

(20): عبده، محمد: دروس من القرآن، دار إحياء العلوم، بيروت، (د.ط)، 1984م، ص 26، 27.

(21): رضا، محمد رشيد: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1406هـ، ص 191 – 348. ورضا، محمد رشيد: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، 1990م، 11/171 – 239.

(22): الزرقاني: مناهل العرفان، 2/ 123، 124.

(23): شلتوت، محمود: إلى القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت والقاهرة، (د.ط): 1403هـ - 1983م، ص 05

(24): انظر: الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، (د.ط)، (د.ت).

(25): انظر: العلواني، طه جابر: مقاصد الشريعة، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2001م، ص 135 – 150. والرفاعي، عبد الجبار: مقاصد الشريعة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى: 1422هـ - 2002م، ص 82 – 84، بتصرف واختصار.

(26): الخالدي، صلاح عبد الفتاح: مدخل إلى ظلال القرآن، دار عمار، عمان، الأردن، الطبعة الثانية: 1421هـ - 2000م، ص95، 96، بتصرف واختصار.

(27): انظر: الصلابي، علي: الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت)، ص 49 – 143، بتصرف واختصار.

(28): أحمد بن حنبل: المسند: 15/ 491.

(29): السيوطي: الإتقان: 3/364.

(30): المصدر نفسه: 4/139.

(31): الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: 1407 هـ، 1/01.

(32): الرازي: مفاتيح الغيب: 1/ 156.

(33): السيوطي: الإتقان: 4/ 140، 141.

(34): رضا: تفسير المنار: 1/ 30.

(35): الصابوني، محمد علي: صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى: 1417هـ - 1997م، 18/1.

المصادر والمراجع:

01- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2001م.

02- إسماعيل، محمد بكر: دراسات في علوم القرآن، دار المنار، الطبعة الثانية:1419هـ-1999م.

03- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: الجامع الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

04- ابن جرير، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1420 هـ - 2000م.

05- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: مدخل إلى ظلال القرآن، دار عمار، عمان، الأردن، الطبعة الثانية: 1421هـ - 2000م، ص95، 96.

06- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الملقب بخطيب الري: مفاتيح الغيب (تفسير الرازي = التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: 1420 هـ.

07- ابن ربيعة، عبد العزيز بن عبد الرحمن: علم مقاصد الشارع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى: 1423هـ - 2002م.

08- رضا، محمد رشيد: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، 1990م.

09- رضا، محمد رشيد: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1406هـ.

10- الرفاعي، عبد الجبار: مقاصد الشريعة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى: 1422هـ - 2002م.

11- الريسوني، أحمد: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية: 1412 هـ - 1992م.

12- الزَّبيدي، أبو الفيض مرتضى محمّد بن محمّد الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، (د.ط)، 1965 م.

13- الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الثالثة، (د.ت).

14- الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: 1407 هـ.

15- ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 2000م.

16- شلتوت، محمود: إلى القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت والقاهرة، (د.ط): 1403هـ - 1983م.

17- الصابوني، محمد علي: صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى: 1417هـ - 1997م.

18- الصلابي، علي: الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).

19- طنطاوي، محمد سيد: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى: 1997م – 1998م.

20- عبده، محمد: دروس من القرآن، دار إحياء العلوم، بيروت، (د.ط)، 1984م.

21- العلواني، طه جابر:مقاصد الشريعة، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2001م.

22- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي: جواهر القرآن، تحقيق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثانية: 1406 هـ - 1986م.

23- الغزالي، محمد: المحاور الخمسة للقرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، (د.ط)، (د.ت).

24- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية: 1384هـ - 1964م.

25- قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت والقاهرة، الطبعة السابعة عشر: 1412 هـ.

26- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية: 1420هـ - 1999م.

27- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري: الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (فيصل البابي الحلبي)، القاهرة، الطبعة الأولى: 1374هـ - 1955م.

28- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1414 هـ.

29- اليوبي، محمد سعد: مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار الهجرة، الرياض، الطبعة الأولى: 1418 هـ - 1998م.